مجلة إنسانيات معاصرة (Revue Inssaniyate Mouãssira)
المركز الجامعي صالحي أحمد – النعامة -
ISSN : 2830 - 8050
المجلد: 01 العدد: 01 مارس 2022 م الموافق لـ: شعبان 1443 هـ

الموقف والزمان والمكان في شعر المقاومة الشعبية.[1]

Situation, time and place in the poetry of the popular resistance

الدكتور. جلول بلحاج

الملخص:

كثيرةٌ هي أساليب تسجيل المواقف الإنسانية اتجاه واقع التحدي وما تفرضه الرغبات والسياسات المضادة. لأجل هذا وغيره تحرص الأمم عبر التاريخ على ترسيخ قيم النضال ومتطلبات الإنتماء. هناك حيثُ يتبادل السيف والقلم والكلمة الأدوار، ويتمّ استغلال الممكن والمتاح حفاظا على الهوية، وإغناءً للذاكرة. والشعرُ الشعبي كغيره من الفنون التعبيرية أسهم وبشكل واضح في تبني مواقف النضال وإعلانها وتلقينها للأجيال، فسدّ بذلك بابا قد يستعصي على سائر قنوات التأريخ ذات الطبع الرسمي أو النخبوي. وذلك بسبب واستجابةً لطبيعة الشرائح الشعبية التي كان يستهدفها بالخطاب وينوب عنها في التسجيل والتأريخ.

الكلمات المفتاحية: شعر شعبي ،مقاومة، جزائر، استعمار.

[1] – د: بلحاج جلول. Djelloulogbi46@hotmail.com

TRADUCTION:

Trends of the economic and trade community. Throughout history, it has been established on the consolidation of the values of struggle and the requirements of belonging. There, the sword, pen and word exchange roles, and explosives are exploited, preserving identity, and enriching memory. Poetry, which belongs to the folk arts, belongs to the company, belongs to the trade company, belongs to the company of antiquities, contributed to the display of commercial advertisements, their announcement and their indoctrination for generations. This is due to the response to print.

Key: Popular poetry, resistance, Algeria, colonialism.

تمهيد:

تدلّ قائمة المذكورين من الشعراء الشعبيين زمن الأمير عبد القادر وغداة الاحتلال الفرنسي على عمق وجود ذلك الشكل من التعبير وتمكنه من مفاصل الحياة الأدبية ذات الموضوعات المتنوعة. ونحن نسوق هذا النص لاهتمامه بما للشعر الشعبي من دور متفرد في التعبير عن المعاناة خصوصا زمان غيبة الشعر السياسي باللغة الفصحى "إنّ الذي تولى التعبير عن خلجات الناس بعد ذلك هو الشعر الشعبي. ولم يعد الشعر السياسي الوطني للظهور إلا عشية الحرب العالمية الأولى أو في المهجر. وفي فترة

المقاومة ظهر شعراء ينافحون عن الدين والوطن وتعلقوا بالأمير عبد القادر كما فعلَ محمد الشاذلي."[1].

أسهمَ في ذلك شيوع اللغة الدّارجة بين الأوساط الشعبية وتمكنها في كافة مجالات الحياة، وتوافر الأماكن الأكثر مناسبة لذلك كالأسواق والمناسبات الاجتماعية كالأعراس...والدينية كالمدائح النبوية، وما قيل في الإشادة بالصالحين وأدوارهم الدينية والاجتماعية...ونسوقُ هذا النصَّ لما يشيرُ إليه من ذلك "ومن ذلك أيضا حلقات إنشاد الشعر الشعبي حيت يقوم المداحون بقص السير والأخبار ومغامرات الأبطال والفرسان."[2].

كما تدل المفردات المستعملة القصائد الموجودة ومن ثم محتملة الوجود على لغة وأسلوب قريبين نسبيا مما تلا ذلك من القصائد المتأخرة نسبيا. ولا يكاد يلاحظ القارئ غير بعض السلاسة والمرونة في القصائد المعاصرة للثورة مثلا. وهذا بدوره يوحي بالتطور البطيء للغة الدارجة في المجتمع الجزائري حيث يمكن لقارئ قصائد زمن الاحتلال وزمن الاستقلال أن يدرك معاني المفردات المألوفة نسبيا دون عناء كبير.

من هذه الحيثية أمكن للقصيدة الشعبية أن تنتهي إلى أن تكون نمطية يتمّ تداولها في مختلف جهات الوطن وفي أوسع الشرائح الشعبية. إنّ هذا يسهم في فاعلية دور الشاعر الشعبي وعبر قصائده الشعبية، ويؤكد نجاحه في

[1]– تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله (دار البصائر، الجزائر، ط:01، 2009م) ج 8/ 241.
[2]– تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله. ج 1/ 161.

مهامه النضالية وما تشير إليه من ترجمة وحدة موقف وتحددُه من زمان ومكان.

– **الإشكالية**: والسؤال ذي يرد ههنا يتعلق أساسا بمدى الدقة والواقعية في تعاطي الشاعر الشعبي وقدرة قصيدته الشعبية مفردات وتراكيب مع أصالة الموقف ومتطابات تحديد الزمان والمكان؟ وما هي الضغوط التي واجهت شاعرنا الشعبي فتمكن من تجاوزها حيث عجزت سائر قنوات النضال؟.

– **أهداف البحث**: إنَّ هدف هذه الورقة هي مجموع أمور:

– إبرازُ دور المواطن الجزائري – شاعرا شعبيا — في مواكبة مسيرة النضال ابتداء وانتهاء.

– دورُ التجربة الحيّة في إضفاء الفاعلية والعبقرية على القصيدة الشعبية.

– القصيدة الشعبية من مصادر التاريخ الوطني في تسجيل الحدث والزمان والمكان.

مقدمة:

إنّ حتمية النضال واستخلاص الوطن من الاحتلال قد جعلت الواجب مؤكدا على جميع أهله، كل من موقعه، وما يتاح له ويحسنُه فصاحب السيف بسلاحه، وصاحب القلم، والصحافة والقاضي والمفتي... والشاعر بقصائده. وربما يجتمع في الشاعر الشعبي أن يكون جنديا بسلاحه أو أميرا بصلاحياته. ومن خلال ما وصل إلينا المقاومة الشعبي ندرك مدى انتماء الشعر إلى قضاياها وتفانيه في التعبير عنها ونصرتها، والتفنن في عرضها. ولا شك أنّ ذلك كان ضروريا لسهولة تلقي تلك المقادير الشعرية فهما وحفظا...وكانت حرارة العاصفة انعكاسا لحرارة التجربة وكيف لا وهي تتعلق بالوطن، والاعتداء عليه ومعاناة أهله.

ونتطرق إلى موضوعاته من جهة تحديد الموقف والمكان والزمان ومدى كثافة ذلك في شعر المقاومة الشعبي، ومبررات ذلك.

أولا: الشعر الشعبي في سياق المقاومة – الجذور والامتداد–

تشير الدراسات إلى أن الشعر السياسي باللغة الفصحى قد اختفى أو كاد أعقاب ثورة الأمير عبد القادر وما مثله استسلامه من الانقطاع في تجارب النضال الحية والتي كانت تذكي روح الشاعر، وتصبغ قصائده بالنضال والتحدي. وذلك "ومن الملاحظ أن الشعر السياسي الفصيح كاد يختفي بعد فشل المقاومة سنة 1847. ولا ندري هل كان لهجرة الشعراء أثر

على ذلك."[1]. وتولى الشعر الشعبي كما قدمنا أدوار النضال والتأريخ للمعاناة الاجتماعية، وتسلط الإستعمار "الكفْرة"، كما كان يعبر عنه وهو أمر قررناه سابقا فلا معنى لإعادة الحديث عنه والنص الخاص به.

والموجود من الشعر الشعبي في الأزمنة المتتالية في رصد قضايا النضال والاحتلال، نجدها تواكب الملاحم التي قادها الأبطال ضد المحتل، وتناسب زخمها مع حجم المعاناة وفرص النصر على الرومي، في أزمنة الثورات الشعبية تماما كما هي في زمن ثورة التحرير بعد قريب من قرن. ولم تفقد بريقها إلا حيث يخفت صوت السلاح ويعقبه النضال السياسي الذي لم يكن ملهما فيما يبدو بالقدر الكافي لإنتاج روائع الشعر الشعبي.

ثانيا: نماذج من تسجيل الموقف والزمان والمكان في شعر المقاومة الشعبي.

يمثل احتلال الجزائر نقطة البداية في البحث عن تحديد الزمان والمكان في الموقف في الموروث من الشعر الشعبي، وإن كان بعض ما هو موجود من ذلك يعود إلى ما قبل ذلك بوضوح اي زمن العثمانيين (الترك)، وكان يوجد فيه أحيانا بعض الظروف التي استدعت التسجيل شعرا وغرف عن بعض الشعراء ذلك يقلون أو يكثرون حسب توفر الداعي الجغرافي والمبرر السياسي وبإمكان الباحث أن يتساءل إلى أي درجة كان الشاعر الشعبي دقيقا في ذكر المكان الذي تكون قد وصلت إليه الجيوش الفرنسية مثلا أو امتدت

[1]- تاريخ الجزائر الثقافي ج 8/ 241.

إليه بيعة الأمير عبد القادر، أو شملته أحداث معينة كانتفاضة 1945م، أو تحديد مكان بعينه دون غيره في عملية ثورية...ومن جهة أخرى هل واكب الشاعر تلك الأحداث وعاين بعضها أم أن إنتاج قصيدته قد تأخر مثلا إلى سنوات طويلة فيما بعد وإنما هي الذاكرة الشعبية وما تتيحه من تحديدات وتفاصيل بشأن جغرافي الأحداث وتاريخها.

– **تحديد الموقف في قصائد المقاومة الشعبية:** يتنوع الموقف المعلن في قصيدة الشاعر الشعبي إلى مواقف الرفض من قضية الاحتلال مثلا، أو تقبلها ومشاركة قبيلة أو جهة ما في ثورة من الثورات أو التخلف عنها. كذلك في إعلان الموقف الديني من الوافد النصراني مثلا كما في قول شاعر مجهول:

النصراني بخيل منافق غدار ooo منه يا خيي رد بالك

وهو موقف واضح وحاسم يبدو وليد خبرة ومخالطة،وفي بقية القصيدة تحذير من التعامل والمخالطة، وهي مفاصلة شديدة التصعيد تناولت تفاصيل معاملات يومية من البيع والكراء...وفي قول الشاعر بن عبد الله يؤرخ لمبايعة الأمير عبد القادر[1] واحتلال مدن وغير ذلك 1837م:

نصروه اعْرَبها وبايعوه الانجابْ ooo قضيا ومفاتا شيوخها وعالم

[1]– المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون،جلول يلّس ومقرانالحفناوي (وزارة الثقافة، الجزائر، د ت، 2007م) ص:48،53

في هذا النص الشعري تسجيل معمم للهبة الشعبية لبيعة الأمير علد القادر على الجهاد وإعلان نصرته، وليس فيما ذكر شيء من الاستثناء على الأقل في زمن البيعة، هناك حيث لم يتخلف أحد من رجال قبائل عربية وغيرها، وقضاة "قضيا"، ومفتين "مفاتي" وعلماء...ولم يعرج الشاعر الشعبي على مواقف مضادة مما يفيد أن القصيدة قيلت زمن البيعة المذكورة والمشهودة أو أعقابها بقليل. وهكذا وعلى فرض غياب وثائق تلك البيعة والأطراف الموقعة عليها يمكن للمؤرخ وعموم المثقف أن يستأنس بها على أقل درجات التقدير في التدوين والتوثيق...

ويدخل في هذا السياق جميع من ذكروا أعوانا للاستعمار أو متواطئين مع تجربة وجوده، مخالفين في ذلك مقتضيات الإنتماء إلى الوطن...

وفيما يلي نورد أبياتا نورد أبياتا شواهد على مواقد هذا الشاعر كغيره من كثير من الشعراء والوطنيين من التمني والسعي لهلاك المستعمر فقد قال الشاعر عبد الحفيظ زواوي[1]:

شتت جيش الروم بالهزمة يرحل ooo ما يبقى تاثير من شين فعالوا
اقبلنا فلي اطلبناه وكمـــــــــل ooo جنود السلام للكفرة مالـــوا

ثم أضاف بعد كلام ما نصه:

رانا موجودين لحرب الجاهل ooo وانجيبوا لعلام نجمة واهلالوا

[1]– قصيدة عبد الحفيظ زواوي " الحلف الأطلسي ". مخطوط خاص.

– تحديد المكان في قصائد المقاومة الشعبية: لا يغيب المكان في شعر القصيدة الشعبية، وذلك أن الحدث متربط به كما هو مرتبط بالزمان بل أكثر، ولما كان النضال واسعا، والحركة مستمرة فقد وجد هامش المكان في الشعر الشعبي واسعا أيضا. ولأجل ذلك نص الشعراء الشعبيون على كثير من المناطق بتسمياتها الحديثة عموما، وسنبدأ بالبدايات الأولى ثم نتدرج إلى عهد الاستقلال. ففي قول الشاعر المجهول[1]:

فالقالهْ طامعة الخيْبة ooo في بلادي ناوية تعاشرْ

تسجيل جزئي متكرر لبعض المدن التي تعرضت للاحتلال أو كان مخططا لاحتلالها. كذلك وانتقالا إلى الجنوب الغربي يشير النص التالي إلى مكان "الشلالة" وذلك أنه "في سنة 1864 حدثت ثورة أولاد سيدي الشيخ فكان لها شعراؤها، ومن المعارك التي خلدها الشعر الشعبي معركة الشلالة في هذه السنة وصاحب الشعر هو أحمد بن دالة العامري... ويعبر الشاعر عن المعركة بأنها (نهار الشلالة) المخلد في التاريخ (في الزمان معدود):

يالحاضرين عاودوا الأخبار واشتَه صارْ.. على نهار الشلالة في الزمانْ معدودْ

سعد النهار الشلالة خرجت المحلّة ... جات ثمَّ الخيالة ما بقى مجحود."[2]

وأيضا ورد مثل ذلك في قول الشاعر ابن الصحرا[3]:

---

[1]– النزعة التاريخية الوطنيةفي الشعر الشعبي الجزائري، بسمة براهيمي.رسالة ماستر (جامعة الوادي الجزائر 2015م) ص:150

[2]– تاريخ الجزائر الثقافي. (8/ 325)

[3]– النزعة التاريخية الوطنيةفي الشعر الشعبي الجزائري. ص: 157.

في بوقزول ooo مع الكافر راس الغول
تركوا مذلول ooo معظم هذا القَصِيا

والمكان المحدد يقع في ولاية الجلفة حاليا وهي مناطق داخلية تمكن الاستعمار من التوغل إليها بعد أن كبدته المقاومة المحلية ما ذكره الشاعر وغيره.

ونختم الحديث عن هذا العنصر بالتطرق إلى شعر عبد الحفيظ الزواوي في قصيدة شعبية بعنوان" الحلف الأطلسي"[1]: وتعرض فيها إلى ذكر بعض الأماكن التي كانت قيادة الثورة تتولاها وهو ما يوحي باتساع الثورة وتمكن قياداتها من مفاصلها المكانية:

اعميروش ملازم الجهات الكلْ ooo من فوق الرياس ممنوع اقدالوا

وقد قال أيضا وفي نفس القصيدة وهو يتكلم عن الحبس اي السجن يحيل بذلك إلى أماكن متفرقة رصدها الإستعمار لأفراد المجاهدين والمواطنين:

من لعْراش معمّرة لحباس الكلّْ ooo ما تعرفْ من مات من لي مازالوا

وهي عبارة تشير إلى حجم المعاناة، أبدع الشاعر في تصويرها من خلال عبرات بسيطة مباشرة.

– **تحديد الزمانفي قصائد المقاومة الشعبية:** وإذا كان المكان حاضرا في شعر المقاومة الشعبي فإن الزمان وإن كان أقل حضورا منه إلا أنه قد شغل حيزا متفاوتا، والسبب واضح من كون التاريخ لا يمكن التعبير عنه

[1]– قصيدة عبد الحفيظ زواوي " الحلف الأطلسي

بغير الجمل الطويلة والتي قد لا يتسير للشاعر إخضاعها للوزن خصوصا إذا كان القصد الدقة والتحديد التاريخي. وربما اكتفى الشاعر بالأرقام الكبيرة أو تحديد القرن أو الشهر أو الفصل...نجد ذلك في الشاعر المجهول حول ثورة المقراني 1870م – 1871م:

خذْ نعطيك أخبار ابطال ذا الرَّعْية ooo مسطرّة متمومة تاريخها مقيَّدْ
أثنا الحربالسبعين تنافروا الخِزْيـــــة ooo الالمان تقوّى والرومي تنكَّدْ[1]

وفي التحديد بالسبعين إشارة إلى 1870م اكتفى الشاعر بالعدد المذكور لشهرة التاريخ وكون قارئ القصيدة يومها معاصرا للشاعر. وفي الحالتين فإن التاريخ المذكور يفي بالغرض. بإمكان المؤرخ إذا أن يقارب التحديد مع ما يتيسر من إضافات أخرى في نصوص وقصائد متاحة. وقوله "تاريخها مقيد" ما يدل على التراخي النسبي للقصيدة عن االحدث التاريخي.

ونختم الكلام حول هذا العنصر بما ذكره عبد الحفيظ زواوي "الحلف الأطلسي"[2]، وهو يؤرخ لحر بالتحرير وما شغلته أحداقها من مدد زمانية تماما كما تعكس حجم المعاناة إذ كان الحديث يدور عن حرب واسعة وشرسة، ومركزة أيضا ههنا بالجزائر دون غيرها خصوص بعد استقلال تونس والمغرب:

كلّ ليلة وانهارْ واقضاها ينزلْ ooo مدة سبع سنين عدَّة باكمالوا

[1]– النزعة التاريخية الوطنيةفي الشعر الشعبي الجزائري. ص: 171.
[2]– قصيدة عبد الحفيظ زواوي " الحلف الأطلسي".

ثالثا: مكانة شعر المقاومة الشعبي من الذاكرة الوطنية.

كانت فرص الشاعر أكثر من فرص الجندي أو الشاعر الجندي في التعبير عن واقع الاحتلال، ومعاناة الوطن ومهمة النضال. وقد كان قرب الشاعر الشعبي من المواطن وقضاياه، في المكان واللغة، والأسلوب رافدا من روافد امتداد عمر القصيدة الشعبية، ووصولها إلى جميع الجهات، وسهولة تداولها، وقرب أصحابها من الأحداث وصانعيها؟ ذلك أن بعض الشعراء كانوا في غمرة الأحداث، وبعضهم كان من ضحاياها...والبعض الثالث كان شاهدا على تفاصيلها بما أهله إلى الإبداع في التصوير والتعبير. ولا نجد القصيدة السياسية باللغة الفصيحة تمنع من تداول القصيدة الشعبية، ولا تكاد تغني عنها إذ لكل جمهوره. وقد بلغ مجموع ما سجل في زمن الأمير عبد القادر مثلا ما يمثل عملا متكاملا كما أشار إليه سعد الله وإلى من جمعه من الفرنسيين فقد قال: "الشعر الشعبي السياسي في عهد الأمير عبد القادر: مجموعة نشرها أوغست كور سنة 1918م. وقد اشتملت على قصائد قدور البرجي (بونقاب) سابق الذّكر والطاهر بن حوّا الذي ناصر الأمير. وذكر كور أنه جمع قصائد بونقاب من تلاميذه الجزائريين، أثناء وجوده في مدرسة تلمسان سنة 1912م. وقد استعان أيضا بالعلماء والطلبة لترجمة النصوص والحصول على المعلومات."[1]. والتاريخ المذكور متأخر يشير

[1]- تاريخ الجزائر الثقافي. ج8/ 314 م.

إلى كثرة المأثور وإلى اتساع التداول بين تلاميذ الشعراء وغيرهم من الشرائح الاجتماعية التي كان الشعراء الشعبيون يستهدفونها غالبا بالنظم والإعلام.

نكتفي بهذا المقدار الذي يشير إلى غيره طيلة قرن وربع من الاحتلال والنضال وهي مساحة واسعة، ومجال هائل للقول والنظم، خصوصا مع شيوع الدارجة وسهولتها، وحيوية التجارب النضالية، ووفرة الأحداث وصانعيها. ومن شأن البحث العميق أن يستدرك بالجمع مقادير من قصائد الشعر الشعبي النضالي من المتوقع أن تكون هائلة رغم تطاول الزمان.

الخاتمة.

نخلص بعد هذه الجولة السريعة إلى مجموع نتائج تمت الإشارة إليها مع بعض التمثيل من الشعر الشعبي، وبعض التحليل لخلفياته السياسية والنضالية. من ذلك:

- حضور الشعر الشعبي في معركة التحرير.
- دور اللغة الدارجة في انتشار وتداول الموجود من قصائد الشعر الشعبي.
- تجربة الاحتلال والنضال كان حاضرة في فاعلية القصيدة الشعبية وتداولها.
- من المتوقع أن يكون منتج شعر المقاومة أكثر بكثير مما هو مدون ولعل البحث يكشف عن مقادير زائدة بل هائلة من ذلك.

المراجع:

- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله (دار البصائر، الجزائر ط:01، 2009م) ج 8/ 241.
- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، جلول يلّس ومقران الحفناوي (وزارة الثقافة، الجزائر، د ت، 2007م) ص: 48، 53.
- قصيدة عبد الحفيظ زواوي " الحلف الأطلسي ". مخطوط خاص.
- النزعة التاريخية الوطنية في الشعر الشعبي الجزائري، بسمة براهيمي. رسالة ماستر (جامعة الوادي، الجزائر، 2015م) ص: 150.